العرب يجهلون ديارهم

لعل جميع الذين يهتمون بشئون العرب وديارهم قد وقعوا غير مرة في مثل ما وقعت فيه من الحيرة والارتباك عند ضبط اسم بلدة او جبل او نهر او واد في جزيرة العرب وعند البحث عن الاعلام التي نطالعها في الكتب العربية القديمة ونحاول الآن العثور على ما تطلق عليه وعلى ما عسى أن يكون قد تبدل منها واتخذ اسماء جديدة . ولكنني لا أرى الذنب في ذلك ذنبي ولا ذنب من وقعوا في مثل ما وقعت فيه بل ذنب الامة كلها . فالمصادر التي تستقى منها هذه المعلومات على بساطتها معدومة ويا للأسف . ولم أطلع بعد على كتاب عربي حديث واف بالمرام في هذا الصدد

وما يقال عن تمحيص الاعلام في بلاد العرب يقال اكثر منه كثيراً عن بقية فروع العلم والمعرفة . فليس في لغة العرب كتاب جغرافي لديارهم واف بالمرام ، ناهيك بما فيها من القبائل والنباتات والحيوانات ، وبما في أرضها من الانهار والجداول والبحيرات والسدود والآبار ، وبما في تربتها من الطبقات الجيولوجية والمعادن الدفينة . فبلاد العرب سر مغلق في وجوه العرب قبل كل أمة متحضرة أخرى . . .

على ان الذى يبحث فى ما كتبه الرحالون الاجانب عن شبه جزيرة العرب يعثر على كثير مما يريده من المعلومات والاوصاف ولكن العجمة تضيع عليه كثيراً من الفوائد اللغوية التي يتوخاها . وقد تضلله أقوال بعض هؤلاء الكتاب في كثير من الاحيان اذا شاء تكوين فكرة عن احد البلدان أو عن احدى القبائل أو الامارات . نعم ان الكاتب قد لا يتعمد الخطأ والتضليل ولكن عقليته الخاصة لا تسمح له بأن يكتب غير ما كتب لانه مهما عظم اختباره للبلدان التي يجوبها ويدرس شئونها لا يستطيع أن يراها بمثل العين التي يراها بها ابن البلاد نفسها او من هو من عنصر اهليها ومن لحمهم ودمهم

واذا شئنا أن نحصي المؤلفات التي كتبت بلغات اجنبية مختلفة عن حالة

شبه جزيرة العرب منذ اواخر القرن الثامن عشر حتى هـذا العهد وجدناها تتجاوز مائة مجلد اساسي وضعها علماء مختلفون من انكليز والمان ونمسويين وفرنسويين ودانمركيين وهولانديين الخ بعد ما زاروا الاقطار التي كتبوا عنها وبنوا مؤلفاتهم على دروسهم واختباراتهم . وقد تلقى كثيرون من الكتاب بعدهم هذه المؤلفات واستخرجوا منها مؤلفات اخرى لاغراض اخرى حتى أصبح عدد الكتب التي كتبت عن شبه جزيرة العرب تعد بالمئات أو بالالوف ولكن الفضل الاول في ذلك هو لأولئك الذين جازفوا بأوقاتهم وبأموالهم وبأرواحهم وجابوا أقطاراً يجهلون كل مافيها ومن فيها وأقاموا بين أهليها وقضوا الشهور الطوال في صحاريها المحرقة لكي يقوموا بخدمة جزيلة للعلم ، وقد ذهب عدد غير يسير منهم ضحية مغامراته وابحاثه

كان الفضل الاول في أعمال الاستكشاف الحديثة في شبه جزيرة العرب لبعثة (نيبور ـ C. Niebuhr) الدانمركية التي جاءت الى مصر سنة ١٧٦١ وأقامت سنة فيها وزارت شبه جزيرة سيناء ثم ذهبت الى جدة في السنة التالية وبعد قليل أقامت الى لحيّة في اليمن وطافت معظم بلاد اليمن وجمعت معلومات ضافية الذيول من جميع الانواع ثم سافرت الى الهند . وقد مات جميع اعضاء هذه البعثة الواحد بعد الآخر في اثناء رحلتهم ولم يبق منهم سوى نيبور رئيس البعثة فقفل راجعاً الى وطنه من الهند بطريق البصرة وسار من هناك براً الى سورية وفلسطين ثم أبحر الى الدانمرك وكان ذلك سنة ١٧٦٤. ونشرت نتائج رحلته سنة ١٧٧٢ ثم وضع مؤلفه المشهور الذي سماه : (سياحات في بلاد العرب ووصفها[1] Travels and Discriptions of Arabia) وهو كتاب لم يستطع اي رحالة جاء بعد نيبور حتى الآن أن يزيد شيئاً مهماً على ما فيه من دقة الوصف والاسهاب في المواضيع التي تناولها

وبعد ما انتشرت نتائج رحلة نيبور الى القسم الجنوبي من شبه جزيرة

(١) طبع في امستردام سنة ١٧٧٤

العرب حذا حذوه كثيرون فجاب (اهرنبرغ C. G. Ehrenberg) و(همبريخ W. T. Hemprich) تهامة والجزر المقابلة لساحلها سنة ١٨٢٥ وذهب (بوتا P. E. Botta) سنة ١٨٣٦ الى أنحاء اليمن الجنوبية حيث قام بمباحث نباتية وقصد الضباط الفرنسويون (تاميزيه M. O. Tamisier) و (شيدوفو Chedufau) و(ماري Mary) ـ الذين كانوا في الجيش المصري في العسير ـ الى جنوبي اليمن للقيام بمباحث جغرافيه . وكان مسيو (أرنود L. Arnaud) الفرنسوى أول من زار (الجوف الجنوبي) وقدم تقريراً عن وجود كتابات منحوتة في الصخر في (مأرب) . وعلى أثر ذلك ذهب مسيو (هاليفي G. Halévy) أحد كبراء علماء الآثار سنة ١٨٦٩ الى تلك الانحاء عن طريق صنعاء واكتشف الكتابات الاولى التي دلت على وجود حضارة سبأ هناك ، ثم واصل سيره حتى بلغ (مأرب) في شهر يونيه سنة ١٨٧٠ وبحث فى آثار مدينة النحاس [1] التي سميت بهذا الاسم لان فيها كثيراً من الكتابات المنقوشة على النحاس . وحذا حذوه بعد ذلك العالم الاثرى النمسوي (غلاسر E. Glaser) فقام بخدمات للعلم لم يقم بمثلها احد قبله منذ بعثة نيبور . ثم أعاد الكرة سنة ١٨٨٩ وسافر الى (مأرب) حيث اقام ثلاثين يوماً وحصل على كثير من النقوش الحميرية

وزار حضرموت كثيرون من الرحالين اولهم الملازم (كروتندن C. Cruttenden) والملازم (ولستيد G. R. Wellsted) سنة ١٨٣٥ ولكنهما لم يستطيعا ان يتوغلا في الداخل . وفي سنة ١٨٤٣ ذهب (أدولف فون فردر Adolph von wrede) الى المكلا وتزيى بزي حاج وزار قبر النبي هود وتوغل في الداخل حتى بلغ حدود الصحراء . وفي سنة ١٨٩٣ زار (هيرش L. Hirsch) اقطاراً اخرى لم يطرقها سلفه . وتعاقب بعده الذين جابوا حضرموت من الاجانب . ولعل خير كتاب كتب عن حضرموت حتى الآن هو كتاب (أرض عوص Land of Uz) بقلم الرحالة (ويمان بورى

(١) هي غير مدينة النحاس الاندلسية التي ذكر ياقوت أسطورتها في معجم البلدان

G. Wyman Bury) أو (عبد الله بن منصور) كما كان يسمى بين القبائل . وله كتاب آخر جزيل الفائدة عن اليمن اسمه (العربية الحدباء [1] Arabia Infelix) يجد فيه القاريء كل ما يشتهيه من الاوصاف الجغرافية والطوبوغرافية ومن الكلام عن القبائل وعن عادات الاهالى واخلاقهم ومعايشهم وموارد رزقهم

اما في القسم الشمالي من جزيرة العرب فكان مستر (بالغراف W.G.Palgrave) اول رحالة ذهب الى نجد سنة ١٨٦٢ ووصف رحلته في كتابه (اواسط بلاد العرب وشرقيها [2] Central and Eastern Arabia) وهو كتاب يعد حتى الآن في مقدمة الكتب التي تعتمد في المراجعات والتدقيق . وعقبه مستر (دوتي C. Daughty) فزار الاقطار الواقعة بين الحجاز ونجد مبتدئا من دمشق ثم ذهب الى حائل . وكتب عن رحلته هذه كتابه المشهور (بادية العرب [3] Arabia desarta) . ثم جاء بعده الرحالة الفرنسوي (هوبر C. Huber) ولكنه لم يعش ليضع مؤلفاً خاصاً باعماله لانه قتل في جدة في شهر يوليو سنة ١٨٨٤ فنشرت مذكراته بعد موته في باريس سنة ١٨٩١ باسم (مذكرات عن سياحة في بلاد العرب Journal d'un voyage en Arabie)

ولعل خير كتاب كتب عن نجد حتى الآن هو كتاب (قلب بلاد العرب The Heart of Arabia) لمستر (فلبي H. ST. G. B. Philby) وهو يقع في مجلدين ضخمين ضافيين بالمعلومات الجغرافية والطوبوغرافية وبوصف ما شاهده المؤلف من أحوال القبائل والبلدان والاقطار

اما الحجاز فكان أول عالم اجنبي دخله لغرض علمي في العصر الحديث هو العالم الاسباني (باديا لبليش Badia J. Leblich) فانه تنكر باسم علي بك وادعى انه آخر من بقي من العباسيين وذهب الى جدة سنة ١٨٠٧ وحج الى

(١) طبع سنة ١٩١٥
(٢) طبع في لندن سنة ١٨٦٥
(٣) طبع في كمبريج سنة ١٨٨٨ واعيد طبعه مختصراً سنة ١٩٢٠

مكة وكان أول عالم عين موقع مكة الجغرافي تعيينـاً علمياً دقيقـاً ووصف طوبوغرافية الاقطار المحيطة بها . ولـكن (بوركهاردت J.L. Burckhardt) كان خير من وصف الحجاز وصفاً دقيقاً في كتابه (سياحات في بلاد العرب Travels in Arabia)[1] وقد ذهب الى الحجاز سنة ١٨١٤ على أثر الفتح المصري ومهد له محمد علي الـكبير مهمته فجاب الحجاز ووضع عنـه كتابه المشهور . وكثر بعده الذين زاروا الحجاز ووضعوا كتباً عنه

وليس الغرض في مثل هـذا المقال الوجيز ذكر اسماء جميع الذين جابوا جزيرة العرب شمالا وجنوباً وألفوا كتباً ضمنوها اختبـاراتهم وأبحاثهم وتدقيقاتهم ، فهم كثيرون لا يكاد بلد اوربي يخلو منهم ، ولـكنني ذكرت من ذكرته منهم ومن مؤلفاتهم ههنا لأظهر مبلغ عناية علماء الاجانب ببلاد العرب التي هي في الحقيقة وطن كل من يتكلم العربية ، فيكون من ذلك لابناء هذه اللغـة الـكريمة واعظ ومذكر بالواجب العظيم المفروض عليهم للعناية بهذا الوطن وتعريف العالم المتمدن به ووقوف ابنائه على حقيقته لا من الـكتب الاجنبية فقط بل من الابحاث التي يجب ان يقوم بها علماؤهم وجمعياتهم

وحبذا لو اهتم المجمع العلمي في دمشق والنادي العلمي في بغداد بتأليف بعثة علمية تجوب بلاد العرب كلها وتستعين بالاختبارات التي تتوفر لها اكثر مما تتوفر لأي سائح اجنبي آخر لوضع كتاب مفصل عن حالة البلاد العربية من جميع الوجوه العلمية والادبية والاجتماعية والجغرافية فيصبح أبناء اللغة العربية على الاقل عارفين ما هي البلاد التي ينتسبون أو تنتسب لغتهم اليها ويتمنون لها الخير والفلاح

وعسى ان تتاح لي فرصـة اخرى اتكلم فيها عن مظهر آخر من مظاهر الحالة الحاضرة في شبه جزيرة العرب

نوفيق البازجي

(١) طبع في لندن سنة ١٨٢٧